الشيخوخة لا يمنح الشباب ، لكنه يدفع باتجاه خلـــق انسان جديد ، فالعجوز على الرغم من اصرارها وتعلقها بالارض ، غير قادرة على لوي عنق الحاكم ، فهي ارث يتعايش فيه السلبي والايجابي ، ومادة بشرية عاشت الهزيمة وشاركت بصنعها . انها والحالة هذه صالحة كمادة خامة لصياغة انسان جديد . فليست العجوز قادرة على كسر هيمنة الحاكم ، فتجاعيدها وقوامها المكسور لا يوصل الى الرابية على الرغم من نيتها الحسنة ، لذلك فهي تضحو السماد المخصب لارض جديدة ، يحتضن جانبها الايجابي، في حين يجتث منها جانبها السلبي، فالتراث لا يؤخذ دفعة واحدة بل يُقلَّم .

وهكذا يخرج من أركان العجوز قادم جديد يتجاوزها تاريخيا ، قادم قوي وجميل ، فهو ليس العجوز وليس كائنا معزولا ومنقطعا عنها ، لكنه يخرج مـــن صلبها ليعيد صياغتها . لهذا فان القادم الجديد يغمد نصله في قلب العجوز ويلقي بأثوابها السوداء الى النار ، ليلبسها ثوبا جديدا . هنا نرى عملية تجدد عن طريق الحركة والممارسة .

تتخلص العجوز ــ اللاجيء من مرحلة ، وتحرق فترة زمنية ، لتدخل مرحلة جديدة ، تلفظ الموات لتصل الى الحياة ، لكن هذه العملية لم تتم الا بعـــد قتل مرحلة . حدد الفلسطيني نفسه بعد أن عثر على الادوات والمفاتيح الملائمة ، والتي جعلته يتخلص من أوهامه وعوالمه الغائمة .

ان أفنان في روايته لا ينسى عملية التناقض الاجتماعي والقاء الضوء على الموقع الطبقي ، فجانب العجوز المغتصبة كانت هناك من تضاجع الحاكم طواعية ، وتمثل العجوز ما يمكن ان نسميه بالشعب المواكب للحركة التأريخية وصانع هذه الحركة ، أي جماهير الفقراء الصانعة الحقيقية للتاريخ .

كما ان الرواية تفتح نوافذ تفاؤلية ، فليس الماضي عدمية مطلقة ، لكنه تربة غنية مهدت على الرغم من شوائبها ولادة ما يتضمنها ويتجاوزها ، فمن قامة « العجوز » المنكسرة وشعرها اليابس طلعت علينا « أم سعد » رمز الشعب المقاتل ، والمقاتل بدون أوهام والمنطلق من التعب والعرق وليس لاعتبـــارات برجماتية تضع الوطـــن باستمرار بين قوسين .

أم سعد وعملية التجاوز :

الحياة تجاوز مستمر محكوم بالممارسة المباشرة والتاريخيـــة وبالمنطق الداخلي للاشياء ، وبعملية التجاوز هذه يحل الانسان مشاكله « نسبيا » وضمن حقل تاريخي محدد.ثم يعود من جديد ليخلق أرضية جديدة تمهد لحل تناقضات جديدة ، وهكذا يتقدم التاريخ ويأخذ طريقه نحو عالم الحرية ، ولا يتقدم هذا التاريخ بفعل ذات محددة ولا بفعل تراكم كمي لذوات محددة ، بل يتم ذلك اثر عملية صراع تاريخية تتمحور حول قطبي التناقض وتجاوزه . تفرز العملية التاريخية شروطا جديدة في مجال تاريخي محدد الخصائص ، ثم ما يلبث التاريخ حتى يعود ليلوي عنق هذه الجدة فتستحيل قـــديما وتتوارى بعيدا في أغوار شروط جديدة ، والتناقض بين الجديد والقديم لا يحل دفعة واحدة ، بل خلال مسار تاريخي تنمو فيه التناقضات وتختمر لتكلل فوز الجديد ، ولا يعني حل التناقضات ظهور جديد واختفاء قديـــم بالمعنى الدوري للتاريخ ، العـــود الابدي ، بل يتضمن هذا الحل تحولا نوعيـــا يساير المنحنى الايجابي للتاريخ ، اي الانتقال من عالم الضرورة الى عالم الحرية(١٠) .

ان ما يبدو ظاهريا خاملا يرقد على ضفاف الحركة التاريخية في فترة زمنية محددة ،